

بين ماضينا وحاضرنا

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

مدنيتان :

ها نحن أولاء نشهد منظرا لعله الأخير من مناظر الصراع بين مدنيتين ، إحداهما مادية صرفة والأخرى أدبية معنوية .

ولقد تنبأ الكاتب الانجائزى ويازى فى رواية وضعها قبل الحرب بأن المدنية الحالية - وهى التى أسميها مادية - ستندثر إثر تطاحن شديد بين دول الغرب ، وتقوم مقامها مدنية جديدة تبرز من الشرق فتبث فى العالم مبادئ جديدة ، وطرزا من العلوم جديدا ، ويتطور تفكير الناس ويتخذون نظما أخرى فى الملئس وفى الحياة ، ومضى الكاتب فى التنبؤ حتى قال إن الجيل الجديد سيجب فى الوصول الى القمر والأجرام السماوية . إذ لا تكفيه الأرض وما عليها .

وقد نشبت الحرب الحالية فوضعت أوروبا فى " بورتقة " ربما كان من نتائجها أن ترجع أوروبا الى أزمائها ، وتنتقل من مدنها الحاضرة الى أخرى أفضل وأجدى على الإنسانية .

لقد قامت المدنية الأوروبية الى اليوم على الناحية المادية ، فالاختراعات جعلت فى متناول أيدينا كثيرا مما كان مستحيلا عليها بالأمس . وصار الانسان يطير ويتكلم عبر الجبال والبحار ويرى خلال المسافات الشاسعة ، وقد أوفت الحياة المادية على الغاية ، ففى الناس أو تناسوا العنصر المعنوى أو الروحى ، ذلك العنصر الذى تعتبره شرائعنا السماوية أهم عناصر الاجتماع . فعمالهم الأديان تنادى بأن الحياة الروحية هى التى توفر السعادة والهناء وتقرب الانسان من الله .

والحياة المادية البعيدة عن الروح هى التى تؤدى الى الطمع والسلب ، وتدعو الناس الى الاقتتال فالقضاء .

ديون الغرب على الشرق :

تلك التعاليم الطبية المستمدة من وصايا الأديان كان الشرق أسبق من الغرب الى معرفتها والعمل بها ، فلتعد اليها لفرز السعادة الى مجتمعتنا والطمأنينة الى نفوسنا .

ألم يكن من تعاليمنا أن يجب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ؟ وحلا نسمع الآن أن قواعد الاجتماع الحديثة تنص بأن الفرد للكل والكل للفرد ؟ فلا أناية ولا أثرة ، وأن أفضل الخير ما كان للجميع والإنسانية كلها لا للفرد وحده ؟ فالعلماء والباحثون الذين يستكشفون كل يوم وسائل تخفيف الوبلات والعلل التي تصيب الناس إنما ينقبون وينصبون لإسعاد العالم وأهله ، فهلا نأخذ عنهم هذه الروح الطبية فنخرج للدنيا علماء وحكماء يدلونها على طريق الهدى ، ويحققون ما ينتابها من المصائب والخطوب .

وقديما كانت الأمة العربية هي المنارة التي أضاءت العالم . ألم يكن من آثار اختلاط الغربيين بالشرقيين في عصور مختلفة ، آخرها عصر الحروب الصليبية أن أخذوا كثيرا من الحضارة الشرقية ولاسيما الفنون والصناعات والعلوم الرياضية ، ونقلوا الكثير من الكتب العربية ومن الصناعات النفيسة كصناعة الحرير والسكر والورق وطريقة استخدام الريح في تحريك الطواحين الهوائية ؟ ألم يقتبس أهل أوروبا من بلاد الأندلس في عهد العرب علومها وآدابها مختلفة ، فكانت الأندلس ينبوعا لحضارة أوروبا الحديثة ، وأهلها هم الذين ساعدوا على نشر الطب وقد أشاد التاريخ بكثير من أعلامهم كأبي القاسم الجراح الذي كان من أكبر جراحى القرن الحادى عشر، والذي استخدم في الجراحة طرقا تماثل الطرق الحديثة . وابن زهروان البيطار، الذى بحث علم النبات واستنبط اثر أسفاره ورحلاته الطويلة أنواعا ممددة من النبات وبحث خواصها وفوائدها . أما العلوم الفلسفية والأدبية والاجتماعية فكان للعرب فيها القدر المملئ سواء في ممالكهم الشرقية أو في الأندلس . فابن خلدون وابن رشد والإدريسي الرحالة الجغرافى ، كل أولئك وسواهم كانوا الأئمة الذين أخذ عنهم الأوروبيون مبادئ الفلسفة والاجتماع والجغرافيا وغيرها ، بل لقد كان للأندلس العربية أكبر الفضل في إدخال الشعر والموسيقى الى أوروبا ، إذ كان الشعر جاريا على ألسنة كل الطبقات هناك ، وكذلك الموسيقى والأغاني ، فأخذ الطلبة الأوروبيون الذين توافدوا على الأندلس لينهلوا العلم من حياضها يقلدون العرب وينقلون الى مواطنهم . أفانين الشعر والموسيقى ، ومن هؤلاء البابا سافستر الثانى الذى أقام في إشبيلية ثلاث سنوات وحض قومه على الارتحال الى مدارس الأندلس لينقلوا علمها الى بلادهم .

فإذا كنا قد أضعنا الكثير من مجدنا الأول فقد آن أن نستعيده ولا عيب إذا اقتبسنا من أوربا الحديثة أحسن ما نجده في مدينتها الحاضرة ما دامت قد أخذت عنا من قبل، وبذلك تكون بفضاعتنا قد ردت إلينا .

المرأة بين مختلف الاتجاهات :

إن أول ناحية أوجه النظر إليها هي ناحية المرأة ، لأنها هي العماد الحقيقي الذي لا تقوم للمجتمع قائمة بدونه . فالذي تستطيع المرأة المصرية أن تقتبسه من زميلتها الغربية ؟ قد يظن بعض السيدات أن أول ما يجب اقتباسه هو أفضل وسائل التجميل وما يلائم البشرة المصرية من الأصباغ والعطور ، ويؤسفني أن أخيب هذا الظن فأقول إن المرأة الأوروبية أبعد ما تكون عن هذا النوع من المدنية إن صح أن يسمى مدنية .

قرأت مقالا لكاتبة غربية تقول فيه إنها تدهش كيف يمكن أن تجد السيدة وقتا لتطبع فيه ذلك الوجه الصناعي الذي تتكره عند ما تضع تلك الأصباغ وما إليها لتجمل نفسها . قد يظن بعض السيدات أيضا أنهن يستطعن تقليد الأوروبية في الأزياء الحديثة التي تطول أو تقصر حسب الأحوال . كلا هذه أيضا ناحية تخطئ سيداتنا في اقتباسها . ولست أنهي المرأة عن أن تتحلى بزى جميل ، بل بالعكس أرى أن اختيار الملابس الملائمة هو فن يجب أن تحذقه السيدة ولكن بودى أن ترك السيدة المصرية تقليد الأزياء الأوروبية تقليدا لا ابتكار فيه . بودى أن تفكر السيدات المصريات في زى يتفق مع تقاليد بلادنا ومع وجودنا ومع ماورثناه من خفروحياء .

وإذا كنت أنتهي سيداتنا عن تقليد المظهر واللباس الأوربي تقليدا أعمى فلعلهن ينتظرن أن أشير باقتباس بعض آثار الحركة النسوية التي ترمي إلى اشتغال المرأة بأعمال الرجال . كلا ، هذا أيضا لا محل لتقليده ، بل إنى لأعتقد أن فكرة ترك المرأة لوظيفتها الأصلية وهي الأمومة الصحيحة وقيامها بأعمال لم تخلق لها قد أصبحت فكرة عتيقة في أوربا ذاتها . وهناك عدة مظاهر لهذا التطور ، ففي بلاد عديدة تدخلت الحكومات لإبعاد المرأة عن الأعمال العامة وقصرها على العمل في دارها . وفي فرنسا لا تزال المرأة محرومة من حق الانتخاب . وفي إنجلترا التي أعطت النساء حق الانتخاب لا يزال عدد النساء اللاتي ينتخبن في البرلمان قليلا جدا وهو يتناقص تدريجيا ، إذ كثيرا ما نرى في الأحوال التي يعاد فيها الانتخاب في دائرة كانت تمثلها المرأة أن ينتخب بدلا منها رجل . وفي جميع البلاد التي أباحت تولى المرأة بعض المهن كالطب والحمامة وما إليها لم ينجح في هذه المهن بل لا يزال عددن غاية في الضآلة .

المرأة للبيت أولا :

هناك مظهر آخر يدل على تطور الأفكار في أوربا بالنسبة لوظيفة المرأة وهو أن جائزة نوبل الأولى في العام الماضي منحت لمؤلفة رواية "الأرض الطيبة" وهي رواية تدور كلها حول امرأة قصرت جهودها على دارها وأولادها وزوجها فتولت تربية الأولاد والعناية بالزوج وبالدار والأرض ، حتى إذا حاد الزوج عن جادة الصواب دب الفساد بين الأولاد ، وحددت الخراب الدار والأرض كانت هي القوة الباقية التي لا تفتر ولا تضعف فأعادت الزوج إلى الطريق السوي وأبعدت الأولاد عن طريق الفنى ، وأنقذت الدار والأرض من الخراب والدمار ولم تقصد المؤلفة بالأرض الطيبة إلا المرأة الطيبة التي تنبت الثبت الحسن وتخرج أبرك الثمرات . أليس في إعطاء جائزة نوبل لمن ينادى بهذا الرأي ما يدل دلالة واضحة على أن أوربا الحديثة لم تعد تدبر بفكرة نزول المرأة إلى كل الميادين بل عادت إلى الفكرة التي يعتقد الكثيرون أنها قديمة والتي ترجع بالمرأة إلى وظيفتها السامية الأولى . لماذا لا تأخذ سيداتنا وهن على ما نعلم من راحة العنزل ، بالتجارب التي مرت فيها أوربا ؟ لماذا نصر على أن نمرق التجربة بأنفسنا ولا نتعظ بما أصاب غيرنا فنكسب بذلك وقتنا أضاعته البلاد الأوروبية في تجربتها . لم لا نبداً من حيث انتهت هذه البلاد بدلا من أن نعيد ما ثبت فشله في البعثات الأخرى ؟ إذا كان للمرأة المصرية أن تقتبس من زميلتها الأوروبية فلتقتبس شيئا أهم بكثير من المظهر والملبس والقيام بأعمال الرجال وغير ذلك من تافه الأمور . أجل ! حتى أعمل الرجال هي بالنسبة للمرأة تافهة وإن مهمتها أبعد أثرا . أليست هي التي تعد الرجال الذين يستطيعون أداء هذه الأعمال على خير وجه ؟ لنتقن من المرأة المصرية الصفات التي تتحلى بها المرأة الأوروبية والتي تستطيع بها أن تكون شريكة تحفف من عبء الحياة وعونا على الزمن وملمات لا عبثا يشغل كاهل الرجل . كم من رجل في أوربا استطاع أن يؤدي أجل الخدمات لبلاده بل للانسانية لأن امرأة خلفه تشجعه إذا تطرق اليأس إلى قلبه وتعينه إذا ضعفت أو فترت همته وتواسيه إذا احتاج للأساة .

فضل النساء في جهود الرجال :

فباستور العالم الفرنسي الذي أنقذ الانسانية من أمراض فتاكة كان أكبر عون له امرأة ضالحة بجانبه ، وغلاستون الوزير الانجليزي الذي كان أكبر من ساعد على رفعة الإمبراطورية البريطانية في العهد الأخير قال عند ما أراد البرلمان الانجليزي أن يمنحه أعلى مراتب التقدير إن زوجته أولى منه بذلك ، لأنه لولاها ما استطاع أن يخدم بلاده تلك الخدمات الجليلة الصادقة و"جراهام بل" مخترع التليفون ، لم يكن ليخترعه لولا امرأة كانت خطيبته ثم اقترنت

به وأخذت تشجعه وتدفعه دفعا الى إتمام اختراعه في وقت كاد اليأس يشفيه عن السيف فيه .
 قرأت في مقدمة كتاب كتبه اللورد جراى الذى تولى وزارة الخارجية البريطانية مدة طويلة
 (وقد كتب هذا الكتاب بعد أن فقد بصره) أن الفضل الأول فيما كتبه يعود الى امرأته
 فلولاها لما استطاع أن يكتب شيئا . أذكر أيضا أنه حدث في السنوات الأخيرة أن أحد
 وزراء بريطانيا اضطر للاستقالة بسبب فضيحة نشأت من تسرب أسرار الميزانية البريطانية .
 أعجبنى أن يقول هذا الرجل في محنته إنه مطمئن البال لأن زوجته لا تزال تثق به . قارنت
 هذا بما نسمعه في بلادنا بين حين وآخر من أن زوجة تركت زوجها لكارثة أصابته ، أو لفقره ،
 أو لأقل من ذلك كنفه من مدينة الى جهة ريفية ولو كانت قريبة ، وذكرت قضية زوجة
 كانت تستطيع مد يد المعونة لزوجها في محنة أصابته وكانت موسرة وفي مقدورها انتشاله
 خصوصا وقد عاشا معا زمنا طويلا ورزقا بنين وبنات ولكنها أثرت أن تفتن عليه بدراهم
 لا تسمن ولا تنفى فلم يجد الرجل سبيلا الا الانتحار ففقدت بانائيتها وحمودها رجلا شاركها
 الحياة زمنا طويلا وجنت على أولادها الأبرياء ، قارنت هذا بالمثل الأعلى الذى أبتحله للمرأة
 في ميدان التضحية وإنكار الذات ، ولكن لم يتطرق اليأس الى نفسى فبقت المرأة المصرية طيب
 وكل يوم نرى أمثلة تدل على أنها تنشدها المثل العليا ، وأنها متى أعدت إعدادا طيبا فإنها تخرج
 لبلادها رجالا ناهين ناعمين يسمون بالوطن الى أعلى عليين .

المرأة والخدمة الاجتماعية :

هناك ميدان فسيح تستطيع المرأة المصرية أن تنافس فيه زميلتها الغربية ، وهو ميدان
 الخدمة الاجتماعية . ولقد خلق للمرأة وخلقت له ، وما الخدمة الاجتماعية إلا انقاذ الناس من
 البؤس بمختلف أنواعه وارشادهم الى سبيل الهناء ، أذكر كلمة للكتاب الأمريكى مارك توين
 ذكر فيها أن الهناء يحتاج الى من يتقاسمها مع الانسان لى تكون أعمق أثرا ، فهل هناك غير المرأة
 لتشر السعادة إذ هى التى تستطيع ببشرها ورقتها أن تقاسم الناس السراء ، ثم هى إذا قاسمتهم الضراء
 فإنها تخفف عنها وتبخل الناس أقدر على احتمالها ، وميدان الخدمة الاجتماعية واسع لا حده ،
 فالمرأة فى دارها تؤدى أجل خدمة اجتماعية إذا أسعدت زوجها وأشرفت اشرفا صحيحا على
 تربية أولادها . وفى الحى الذى تقيم فيه تقوم بأجل عمل اجتماعى ، بل تكون ملك رحمة إذا
 جعلت من واجباتها اليومية تخفيف آثار البؤس والمرض والفاقة ما استطاعت الى ذلك سبيلا .
 كم من امرأة فى بلاد الغرب تشتغل فى أعمال البر والخير والاحسان ؟ إنى لا أبالغ إذا قلت إن هذه
 الأعمال أصبحت من اختصاص النساء وهدن قلوبهن الرحيمة ، وأياديهن الرقيقة تجمعهن
 خير من يتولى هذه الأعمال . ألم تبدأ أعمال التمريض والعناية بالجرحى والمرضى فى الحروب
 على يد سيدة كريمة كانت تسمى بالملك الأبيض أو السيدة ذات المصباح وهى " فلورنس

يُنتج "فهي التي فكرت في حالة الجرحى الذين يتكئون في ميادين القتال تدوسهم الخيل بسنا بكها والجوش بعددها، وانهزت قيام حرب القرم فذهبت الى ساحة القتال وجعلت تسير بين الخطوط باحثة عن الجرحى والمرضى لتتشلهم وتتولى الاشراف على نقلهم الى مكان تضمد فيه جروحهم، ولم يكن ظلام الليل ولا زمهريره ليقف حائلادون قيامها برسالها المقدسة فكانت تحمل مصباحا لينير لها الطريق بين الصفوف ، هذا الملك الكريم لم يكن غير امرأة هي التي أسست صرح الصليب الأحمر والملازم الأحمر للعناية بالجرحى والمرضى في الحروب وفي غير الحروب .

الرجل ونصيبه في خدمة المجتمع :

لندع المرأة جانبا، ولننظر الى الرجل وماذا يستطيع أن يقتبس. لا أريد أن أشير الى الميادين العديدة التي يستطيع فيها أن يتبع خطى الأوربيين ، فهذا أمر يطول شرحه ، ولكن أريد أن أشير الى ناحية واحدة قد تصل بنا الى الطريق الذي سلكه الأوروبيون ، هذه هي ناحية التفكير . فالتفكير كما يقول كاتب فرنسي حديث هو فن من الفنون . والتفكير الحسن المتزن هو الذي يؤدي الى النجاح، وينقذ الانسان من أخرج المواقف. واني اعتقد أن من أكبر عيوبنا في مصر أننا لا نحسن التفكير. لا أنكر أن فينا من يقرأ كثيرا ولكن ليس فينا كثير من يتقنون في قراءتهم حتى يستطيعوا هضم ما يقرأون وتعليقه ومقارنته بما يكابدون من تجارب وما لديهم من معلومات، ليس فينا من يستفيد حقيقة مما يقرأه أو يشاهده في بلاد سارت شوطا بعيدا في المدنية كالبلاد الأوروبية . والوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها مجازاة هذه البلاد هي أن نستوعب ما يصل الى علمنا من جهودهم في الفنون والعلوم ، ونفكر فيه تفكيرا هادئا لنخرج منه ما نستطيع تطبيقه في بلادنا. وقد قرأت اقتراحا في هذا الشأن يشير الى أن الوسيلة الوحيدة لتنظيم التفكير هي كتابة ما يعنى للانسان على أثر مطالعته أو مشاهداته . فالكتابة تنقى التفكير وتهذبه، وتقوى الملاحظة فتجعل الفكر خصباً يثمر آراء، وهي تساعد الانسان على حسن التعبير بدون تردد حتى إنه يقولون إن أكبر قادة العالم الحديث كانوا من أتباع هذه الطريقة . فقد روى أن الفيلسوف داروين كان من عاداته أن يسطر دائما كل ما يجده من الآراء الحديثة خصوصا إذا كانت لا تتفق مع وجهات نظره، واستيفسن المخترع الكبير الذي يرجع إليه الفضل في اختراع السكك الحديدية كان يحمل دائما معه كتابين أحدهما يقرأه والآخر يكتب فيه، ونايليون كان إذا خطر له خاطر وهو على جواده خطه على سرواله حتى لا ينساه، فعملية الكتابة ذاتها تثبت الفكرة في الرأس وتمكن الانسان من وزنها واختيار الصالح منها ، وتنظيم التفكير يؤدي بنا الى تنظيم القراءة .

ولعل أكبر بواعث النقص في تفكيرنا هو قلة إقبالنا على القراءة، والدليل على ذلك ما نراه من ضعف رواج المؤلفات في بلادنا دهما كانت مفيدة مع أن الكتب النافعة في أوروبا

تطبع منها عشرات الآلاف بل مئات الآلاف ثم يعاد طبعها وتنفذ كلها في زمن وجيز . فالمفكرون في أوربا وأصحاب المهن من أطباء ومحامين ومهندسين وغيرهم يطلعون دائماً على كل ما يجد في فنونهم ويقرأون ما يصدر من كتب علمية أو أدبية بعكس الحال عندنا ، إذ لا صبر لنا على القراءة والاطلاع ، وإذا قرأنا واطلعنا فإنما نفعل ذلك بصفة سطحية لا تعمق فيها ، وإنى لأرجو المexcuse إذا عدت هنا إلى الحديث عن المرأة فإنى أعتقد أنها هى التى تشجع على القراءة والاطلاع .

عود إلى فضل المرأة :

سمعت مرة من أحد الأدباء الأوربيين الذين دعته الحكومة لبحث بعض النواحي الأدبية في مصر أنه لاحظ أن الأدب المصرى لا يزال في مهده ، وأن الكتب الأدبية المصرية ليست كثيرة في مصر ، والقليل الموجود منها ليس له الرواج الذى تجده كتب الأدب في أوربا . وكم ألتنى أن أسمعه يسأل ألا تقرأ المرأة في بلادكم ؟ إنها في أوربا أكبر مشجع على التأليف والتصنيف ، فهى تقرأ بنفسها ، وتشجع زوجها وأولادها وكل من حولها على القراءة ، وإذا أخرجت المطابع كتاباً حديثاً كان . وضع النقاش والبحث في المجتمعات وبين جدران البيوت .

خاتمة في الأسرة :

وما دمت قد تحدثنا عن نصيب كل من الرجل والمرأة في خدمة المجتمع فقد وجب أن نتحدث عن الأسرة إذ هى الرجل والمرأة وما بينهما . ولعل أول ما يخطر ببال المصلح المصرى في هذا الصدد التساؤل عن سبب تفكك روابط الأسرة في بلادنا على عكس ما نرى في أوربا فالأسرة هناك متماسكة وأفرادها متعاونون تربطهم أواصر قوية من المحبة والوئام .

إن الأسرة لدينا متناثرة لا تربطها رابطة ، فالزوج في ناحية والزوجة في ناحية أخرى ، والأولاد حيرى بينهما ، فإذا أنا ختمت كلمة بالدعوة إلى زيادة الارتباط في عائلاتنا كما هى الحال في أوربا فليس ذلك لأن هذه الناحية قليلة الأهمية حتى أذكرها في آخر كلمتى ، بل لأنها في نظرى أهم ما يجب اقتباسه من بلاد أوربا الحديثة إذا أردنا أن نصل بوطننا إلى المكانة التى وصلت إليها هذه البلاد ، فالأسرة المتحدة القوية باتحادها هى أساس الدولة المتحدة المنيع الجانب . فإذا تكونت لدينا الأسرة متحدة متعاونة وجدت القرية المتحدة التى يجمع التعاون بين أهلها فيعملون يداً واحدة على تحسين حالهم ، ورفع مستواهم ، وتقليل البؤس والشقاء بين ظهرانيهم ، وإذا وجدت القرية المتحدة المتعاونة وجد الاتحاد والتعاون في كل وحدات الأمة وأصبح الكل كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ويد الله مع الجماعة .

محمد عبد المنعم رياض